٣ ـ القرآن الكريم
فى كتاب النثر الفنى
لنظره إعجاز القرآن
للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

الإعجاز إعجازان ، إعجاز معنى وإعجاز أسلوب . والإجماع منعقد عليهما كليهما فى القرآن ، لكنه إذا أطلق لا ينفك عن إعجاز الأسلوب ، لأن الأدب أسلوب قبل أن يكون معنى ، إذ المعنى للعقل والقلب ، فهو مشترك أو يمكن أن يكون مشتركاً بين اللغات . أما الأسلوب فخاص غير عام ، لكل لغة أساليبها ، بل لكل أديب أسلوبه . فمن ينكر الأسلوب فقد أنكر الأدب فى الواقع

وموقف الدكتور زكى مبارك من قيمة الأسلوب موقف عجب . فهو يجعل الأسلوب فصلاً بين لغة ولغة ، ولكنه لا يجعله فصلاً بين أديب وأديب أو بين بليغ وبليغ . فالفصاحة والبلاغة عنده للمعنى ، لا للفظ ولا للأسلوب . اقرأ له إن شئت فى صفحة ٦٨ من الجزء الثانى قوله : « ونحن نرى أن سر الفصاحة والبلاغة يرجع إلى ما فى المعنى من قوة وروح » . وبعد أن أورد القطعة المعروفة التى أولها : لو كنت من مازن لم تستبح أبلى بنو اللقيطة . عقب عليها بقوله « وهذه القطعة من بدائع الشعر العربى . وهى قطعة خالدة ستظل قوية بارعة ما بقى فى العالم ناس يفهمون سر العربية . ومع هذا لا تستطيع أن تجد فيها ألفاظاً يعز على غير قائلها الوصول إليها ، أو أسلوباً فى التعبير يتميز عن غيره من الأساليب . وجمالها كله يرجع إلى دقة المعنى وطرافته وتخير الألفاظ تخيراً يجعلها تتمثل مع المعنى كتلة واحدة »

ثم اقرأ له بعد ذلك « وقد تجد من الشعر ما تخلو معانيه وألفاظه من الروعة الظاهرة ولكن قوة الروح تصل به إلى أسمى غايات الإبداع . ومثال ذلك قول حطان بن المعلى يشكو فقره وما وضع القدر فى رجليه من قيود الأهل والذرية :

أرانى الدهر على حكمه من شامخ عال إلى خفض

وبعد أن استوفى القطعة المعروفة قال : « وقوة هذا الشعر ترجع إلى الشاعر لا إلى اللفظ ولا إلى الأسلوب » . وهو فى تفريقه هذا بين الشاعر وأسلوبه كمن يفرق بين المرء ووجهه أو بين الوجه وقسماته ، فالأسلوب هو الشاعر والكاتب ، والشاعر والكاتب هو الأسلوب . أو بعبارة أدق ، الأسلوب هو مظهر الأديب ومعبره سواء عبر عن كل ما فى نفسه أو عن بعضه ، فهو كل ما يعرفه الناس من الشاعر أو الكاتب ، ولعل التفاوت فى الأدب هو بقدر التفاوت فى تعبير الأسلوب عن صاحبه ، فأقدر الأدباء هو أكثرهم تمثلاً فى أسلوبه . لكننا نترك هذه المسألة للمشتغلين بالأدب يتنازعونها بينهم ، يوافقون الدكتور أو يخالفونه ، لكن الذى يهم فيما نحن بسبيله هو إنكار الدكتور فى الظاهر كل قيمة للأسلوب ، واضطراره فى النهاية إلى الإقرار له بكل قيمة حين جعله هو والمعنى كتلة واحدة كما رأيت فى تعليقه على القطعة الأولى ، وكما ترى له فيما يأتى :

« ولا جدال فى أن الألفاظ والأساليب تتلون وتتشكل بلون الفكرة التى تسيطر عليها . وعلى هذا الأساس وجد الأسلوب الجزل والأسلوب الرقيق . فالرقة والجزالة من مقتضيات المعانى لا الألفاظ . فالمعنى الجزل له لفظ جزل ، والمعنى الرقيق له لفظ رقيق . فإذا غلبت الرقة على شاعر مثل البهاء زهير فرجعها إلى الفكرة لأنه شاعر وديع يعبر عن معان وديعة يلهم أمثالها أصحاب الوداعة والرقة من الشعراء المترفين . وإذا غلبت الجزالة على شاعر مثل المتنبى فرجعها أيضاً إلى الفكرة لأنه شاعر طامع فى أسمى ما يطمح إليه فحول الرجال ... » ص ٧١ وهو فى هذه القطعة يجعل المسألة مسألة ألفاظ ولا يجعل للتركيب شيئاً ، ثم يجعل اللفظ هو والمعنى شيئاً واحداً ، كأن المعنى إذا قام بالذهن ، والشعور إذا قام بالنفس ، جاء اللفظ طائعاً ، جزلاً أو رقيقاً حسب المعنى أو الشعور . وهو لا يلتفت إلى ما يستلزمه هذا الرأى من وجوب اتحاد الأساليب باتحاد المعانى عند الأدباء ، مما هو باطل بالبداهة ، بل يزداد إغراقاً وإغراباً إذ يقول : « ثم تقرر أن الألفاظ ملك للجميع يجدونها حيث أرادوا فى المعاجم والدواوين ! (والتعجب من عندنا) ولا يبقى موضعاً

للجهد والعنت أو المبقرية إلا المعاني والأغراض

... إن الألفاظ في مقدور كل شاعر وكل كاتب وكل خطيب ، ولكن المعجز حقاً هو الفكرة . وليس معنى هذا أننا لا نقيم وزناً للصناعة الفنية . ولكن معناه أننا نقرر أن الفكرة تجيء أولاً ويجيء الورق ثانياً كما يقول الفرنسيون » . وهو يريد بالورق فيما يبدو الألفاظ والأسلوب الذي سيبدو على الورق ، فإذا كان ذلك كذلك فقد رجع بعد طول الحوار والخلاف إلى ما عليه جمهرة الأدباء من أن المعنى أهم من الصناعة الفنية ولكن الصناعة الفنية لها قيمتها ووزنها . والأمر إليك الآن في أن تجد إسماً لهذه الظاهرة في كلام صاحب النثر الفني : سمها تناقضاً ، أو سمها اضطراباً وتبلبلاً ، أو سمها رجوعاً عن مذهب ظن أنه ابتكره إلى مذهب الناس ، وإن شئت فسمها رجوعاً إلى الحق إن كنت ممن يحسنون به الظن

ولكن — وهذا هو لب الموضوع وروحه — هل تظنه حكم للقرآن بشيء من ناحية الأسلوب ؟ سأترك صاحب النثر الفني يعبر عن نفسه بقدر الإمكان . قال متمماً لكلامه السابق :

« وقد رأى ناس قول الباقلاني (ليس القرآن من جنس كلام العرب) فقرروا خاطئين أن القرآن يخالف ما درجت عليه البلاغة العربية من حيث الأسلوب . ولو سألتهم عن تحديد معنى الأسلوب لعجزوا عجزاً مبيناً ، لأن الأسلوب في رأينا هو الصورة الظاهرة لعقل الكاتب وروحه وفكرته ومرماه » — ولا يخطر لصاحب هذا الكلام أنه قد هدم كل ما قاله من قبل ، وجعل الأسلوب هو كل شيء ما دام هو الصورة الظاهرة للعقل والروح والفكرة والغرض ، وهذه عنده هي كل شيء ، فلعله يحكم للأسلوب القرآني بشيء — « وليس في مقدور أحد من المتفوقين في علوم البلاغة أن يحدد الأسلوب تحديداً منطقياً يجمع خصائصه ويمنع ما يتطرق إليه من غريب الأوصاف ، أو أن يدلنا على خواص أسلوب القرآن دلالة واضحة بريئة من عوارض اللبس والغموض ، فإن ألفاظ القرآن كألفاظ كل كلام عربي مبين لا تمتاز باللفظ ولا بالأداء وإنما تمتاز بالمعنى والغرض والروح » !

أترى صاحب هذا الكلام يعقل ما يقول ؟ إنه يطالب غيره بتحديد الأسلوب تحديداً منطقياً . ألا يتعلم أولاً من المنطق كيف يكون التفكير ؟ ألفاظ القرآن لا تمتاز باللفظ ! طيب ! ولا بالأداء ! طيب أيضاً ! فهذا هو مذهب الدكتور . وإنما تمتاز بالمعنى والغرض والروح ! ألم يقل هذا الرجل قبل ذلك بأسطر إن الأسلوب في رأيه هو الصورة الظاهرة لعقل الكاتب وروحه وفكرته ومرماه ؟ أليس معنى ذلك أن الأسلوب يمتاز بامتياز ما يمثله من روح وفكرة ومرمى ؟ فكيف استقام عنده أن يمتاز القرآن بالمعنى والغرض والروح ولا يمتاز باللفظ ولا بالأداء ؟ ألم يقرر من قبل أن المعنى الجزل له لفظ جزل ، والمعنى الرقيق له لفظ رقيق ، وأن الألفاظ والأساليب تتلون وتتشكل بلون الفكرة التي تسيطر عليها ؟ فكيف جاز في تفكيره أن يكون للمعنى القرآني امتياز لا يكون مثله للفظ القرآني والأسلوب ؟ إن هذا الرجل لا يدري أنه بقوله هذا يجمع على نفسه إنكار إعجاز المعنى إلى إنكار إعجاز الأسلوب !

والعجيب من أمره أنه يمضي على وجهه يضرب الأمثال لرأيه ذلك من القرآن إذ يقول : « فإن أراد أحد شاهداً على ما نقول فإنا نفتح المصحف عرضاً بدون تخير ، ثم ننقل آيات لنسأله أن يعين ما جاء فيه غريباً عن الأساليب العربية . ولنختر خمس آيات من مطلع سورة الأنبياء : (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم ، وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون . قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم . بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) »

ومن قبل أن يستتم المعنى بالآية السادسة على الأقل (ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ، أفهم يؤمنون) جعل يسأل القارىء « فأين تكون غرابة الأسلوب في هذه الآيات الخمس ؟ وأين يكون السياق الفني الغريب عن الأعراب ؟ أليس مرجع الروعة في هذه الآيات إلى المعنى والروح ؟ أترونها تمتاز بالسجع ؟ وكيف والسجع كان معروفاً قبل القرآن ؟ أترون ألفاظها متخيرة منتقاة ؟ هو ذلك . ولكن كيف يدور اختيار

الألفاظ ؟ أترون لاختيار الألفاظ مداراً غير موجبات المعانى والأغراض ؟ » أسئلة يرسلها على القارىء كأن القارىء حكم فى الموضوع ، وليس كل قارىء يستطيع الحكم فيه . ومع ذلك فإن صاحب النثر الفنى قد دل بتلك الأسئلة على أنه ليس من الأدب ولا من صحة التفكير فى شىء ، وإلا فأين فى اللغة العربية كلها يجد خارج القرآن أسلوباً كأسلوب تلك الآيات الخمس ؟ ليدل قراء العربية عليه إن كان يستطيع . وأمامه الآيات قد عرف معناها — إن كان قد عرفه — فليعبر عن المعنى ، وليحتفل ، ولينظر أين يصل به الجهد . بل ليختر آية منها ، أيها شاء ، وليقصر محاولته عليها ولو بتغيير لفظ ، أو تغيير حرف ، أو تغيير ترتيب ، ثم لينظر هل يمكن أن يأتى بشىء يقبله منه أهل العربية أنه عدل الآية ، أو قريب منها ، أو يمكن أن نضع وإياها فى ميزان . إنه التحدى القديم أطرحه فى أبسط صورة عليه الآن من جديد

ويزعم زكى مبارك أن السياق الفنى فى تلك الآيات ليس غريباً عن الأعراب . فمن أين له ذلك وهو يقول أن : « ما نقله الرواة من النصوص لا يكفى لتعيين أساليب النثر فى العصر الجاهلى . وهو على قلته مما وضع فى العصر الأموى وصدر العصر العباسى لأغراض دينية وسياسية »[1] ؛ فمن أين له تعيين أسلوب الحواضر فضلا عن أسلوب البوادى حتى استطاع الحكم ؟

ويقول الدكتور زكى مبارك إن السجع كان معروفا قبل القرآن ، جواباً على ما افترض على لسان القارئ من امتياز الآيات بالسجع ، كأنه يظن أن مجرد وجود السجع هو الامتياز . فإن كان هذا هو المراد فقد أنطق القارئ بجواب غير معقول ليأتى عليه برد معقول ! أم هو يرى أن ما سماه فى الآيات سجعاً هو سجع من السجع لا فضل له على ما سواه . هذا هو لازم رده على ما أنطق به القارئ من جواب ، إن كان يرى أنه أحسن الرد . وإذن يكون رده ذلك دليلا على تسويته فى التقدير بين سجع القرآن وسجع غير القرآن

ثم يمضى الدكتور زكى مبارك فى استشهاداته يقول : « فإن كانت هذه الآيات الخمس لا تكفى فإلى القارئ شواهد أخرى من القرآن المجيد . يقول الله عز شأنه (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا) وأنا أشهد صادقاً أنى ما فكرت فى هذه الآية إلا دهشت من سمو هذا النصح النبيل . فأين يكون جمال هذه الآية ؟ أترونها من جنس غير جنس كلام العرب كما زعم الباقلانى ؟ هيهات ! إن ألفاظها تشبه جميع الألفاظ وتركيبها لا يتميز بشىء عن غيره من التراكيب » . ثم يستكمل الاستشهاد بقوله : « على أنه من الخير أن نسوق الآية كاملة لنتبين كيف يمكن أن تكون بعض أجزاء الآية الواحدة أقوى من بعض : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » . ألا ترون إن أنصفتم أن كلمة « اعدلوا هو أقرب للتقوى » تقل فى قوتها عن كلمة « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » . فما هو سبب التفاوت ؟ لا يظن أحد أن مرجع التفاوت هو الأسلوب ؛ فإن القرآن تفرد فى رأى مخالفينا بوحدة الأداء والتعبير . فلم يبق من فرق بين صدر الآية وعجزها غير تفاوت المعنى . والتفاوت هنا جاء من أن صدر الآية بمعنى بكر لا يجرى إلا على ألسنة الحكماء والأنبياء ، على حين نرى عجز الآية يؤدى معنى مفهوماً لدى جميع الناس » !

فهل ترى هذا الرجل يفهم قوله تعالى « اعدلوا ، هو أقرب للتقوى » ؟ لو كان يفهمه ما قال أنه مفهوم لدى جميع الناس . وأى ناس يا ترى ؟ الناس الآن الذين ألفوا القرآن ، أم الناس فى الجاهلية ، أم الناس فى صدر الإسلام ؟ وبأى ميزان يا ترى تبين له التفاوت بين جزءى الآية ؟ إنه لا يفهمهما رغم تحمسه لأولهما ، وإلا ما افترض أن الإنصاف يقضى بالاعتراف بأن ثانى الجزءين دون الأول ؛ بهتاناً يلقيه بغير دليل . إنه يرى الكلام جزافا ، وإلا ما قال إن المعنى الأول بكر لا يجرى إلا على ألسنة الحكماء والأنبياء والثانى غير بكر ، مع أنه هو الذى لا يمكن أن يجرى إلا بوحى على ألسنة الأنبياء

ثم إن الرجل يكذب حين يزعم لك أنه أورد الآية كاملة . فهو لم يورد إلا نحو ثلث الآية ، على جلال ما أورد . فالآية هى من سورة المائدة : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا ،

(١) الجزء الأول صفحة ٣٥